﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٧٢﴾ [الأنفال: 72]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـعـلاقـة بين قـدرة الـلـه على كـلِّ خـائـنٍ، والـخـطـوط الـفـاصـلـة بين مَـن نُـوالي ومَن نُعادي

في مناسبة هذه الآية لما قبلَها وجوهٌ عدَّةٌ:

أوّلًا: لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقةُ مراحلَ الصّراعِ الّذي كان قائمًا بين الفريقين، وما نتجَ عنه من قتلٍ لبعض المشركين، وأسرٍ لبعضهم، وكيفيَّة التّعامل مع الأسرى في أخذِ الفديةِ وعدمِها، كان منَ المناسب أن تُختمَ السّورةُ بهذه الآيات الّتي تخطِّطُ حدودَ التّعامل، وترسمُ المواقفَ الّتي يأخذُها المؤمنون منَ الكافرين حتّى يكونوا على بيِّنةٍ من أمرهم فيما يأخذون أو يدعون منَ الجبهة المقاتلة لهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾[1].

ثانيًا: لمّا كانتِ الآياتُ السّابقةُ تتحدّثُ عن قتالِ المسلمين للكفّار، وما نتج عنه من أسرى، وكيفيّةِ التّعاملِ معهم مع وجودِ قرابةٍ لهم، إلّا أنّهم ضربوا بهذه القرابة عُرضَ الحائط، مُستبدلين بها قرابةَ الإسلام؛ جاءَت هذه الآياتُ لتتحدّثَ عن رابطة الإسلام، وأنّها أقوى من كلِّ رابطةٍ حتّى ولو كانت رابطةَ النّسبِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ الآية[2].

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 3/3683.
(2) حجازي، التّفسير الواضح: 10/26.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَامَنُواْ﴾: الهَمزَةُ والميمُ والنّونُ: تدلُّ على تصديقٍ وسُكونِ قلبٍ[1]، وأصلُ الأَمنِ: طُمأنينَةُ النَّفسِ وزوالُ الخَوفِ[2]، وفِعلُهُ: أَمِنَ، وأمّا الفِعلُ (آمَنَ) فإنَّ له وجهَينِ: أحدُهما: أَن يكونَ مُتعدِّيًا، تقولُ: آمَنتُهُ؛ إذا جعلتَ له الأَمنَ والأمانَ، ومِنه - في وَجهٍ[3] - اسمُ اللّهِ: المُؤمِنُ، والآخرُ: أَن يكونَ لازمًا، ومعنى (آمَنَ) على هذا: صارَ ذا أَمنٍ.

والإيمانُ: التَّصديقُ، باتِّفاقِ أهلِ اللُّغةِ[4]، ويُطلق في الشَّرعِ إطلاقَين[5]: **إطلاقٌ عامٌّ**؛ تَندَرِجُ فيه جميعُ أمورِ الدّين العِلميَّةِ والعَمَليَّةِ، فهو بهذا الاعتبارِ: قولٌ وعملٌ واعتِقادٌ، **وإطلاقٌ خاصٌّ**؛ والمرادُ به التَّصديقُ والإقرارُ بأصولِ الإيمانِ السِّتَّةِ المشهورةِ.

ويجوزُ أَن يكونَ الإيمانُ الواردُ في قَولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مُرادًا بهِ المعنى العامُّ أو الخاصُّ، والأوَّلُ أَعَمُّ وأشمَلُ؛ لاندراجِ الثَّاني فيهِ.

2) ﴿وَهَاجَرُواْ﴾: الهاءُ والجيمُ والرّاءُ تدلُّ تصاريفُها على مَعنَيَينِ كُلّيَّين؛ أحدُهما: قطعٌ وقطيعةٌ، والآخَرُ: شدُّ شيءٍ ورَبطُه[6]، والمهاجَرةُ في الأصل مُصارَمةُ الآخرِ وتركه، ومِنهُ الهَجرُ والهِجران؛ وهو مفارقةُ الإنسانِ غيرَه، إمّا بالبَدَنِ أو باللِّسان أو بالقَلب[7].

و(هاجَرَ) مِنَ المُهاجَرة؛ وهي: تركُ أرضٍ إلى أرضٍ أخرَى[8]، ثُمَّ خُصَّت في الشَّرعِ بالانتقال إلى بلدِ الإسلام[9].

3) ﴿وَجَٰهَدُواْ﴾: الجيمُ والهاءُ والدّالُ تدلُّ تصريفاتُهُ على المشقَّةِ[10]، ويأتي بمَعنى الطّاقة والوُسعِ[11]. والمُجاهَدَةُ تُطلَقُ في الشَّرعِ على استِفراغِ الوُسعِ في مدافعةِ العَدوِّ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أمن).
(2) الرّاغب، المفردات: (أمن).
(3) الزَّجّاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 31 - 32.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (أمن)، وهذا الاتِّفاقُ إنَّما هو في الحقيقةِ اللُّغويَّةِ للإيمانِ، أمّا معناه في الشَّرعِ فليسَ هو معناه في اللُّغةِ، بل له في الشَّرعِ حقيقةٌ أُخرى أَوضَحَتها أدلَّتهُ.
(5) البرّاك، شرح العقيدة الطَّحاويَّة، ص: 239.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (هجر).
(7) الرّاغب، المفردات: (هجر).
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (هجر).
(9) السَّفّارينيّ، لوائح الأنوار السَّنيَّة: 2/86.
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جهد).
(11) الرّاغب، المفردات: (جهد).

وهو ثلاثةُ أضربٍ: مجاهدةُ العدوِّ الظّاهر، ومجاهدةُ الشَّيطانِ، ومجاهدةُ النَّفسِ[1]، وتدخلُ ثلاثتُها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، والمجاهدةُ تكونُ باليدِ واللّسانِ والمالِ، وسُمِّي بذلكَ؛ لِما فيهِ مِن استِفراغِ ما في الوُسعِ والطّاقةِ من قولٍ أو فعلٍ[2]، ولِما في ذلك مِنَ المشقَّةِ على النّفوس.

4) ﴿ءَاوَواْ﴾: الهَمزَةُ والواوُ والياءُ تَدورُ تصريفاتُها على مَعنَيَين: التَّجمُّعُ، والإشفاقُ[3]، ومِنَ الأوَّلِ التَّأوّي؛ وهو التَّجمُّع، وقولُ العربِ: تأوَّتِ الطَّيرُ؛ إذا انضمَّ بعضُها إلى بعضٍ[4].

المَأوَى: المكانُ الّذي يُنصَرَفُ إليه، ويُقامُ فيه[5]، وآوَى فلانٌ فلانًا؛ أي: أَنزَلَهُ في مَأوًى يُقيمُ فيه، وآويتُ له: رَحِمته، وتحقيقه: رجعتُ إليه بقلبي، قال في حقِّ يوسفَ عليه السلام: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾؛ أي: ضمَّه إلى نفسه[6]، ومعنى قولِ اللّه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ﴾؛ أي: أَنزَلوا المُهاجِرينَ في دُورِهِم[7].

5) ﴿وَّنَصَرُوٓاْ﴾: تَدورُ مادَّةُ النّونِ والصّادِ والرّاءِ حول معنَى إتيانِ خيرٍ وإيتائِه بما فيهِ زيادةٌ مناسِبةٌ وقوَّةٌ. ولازِمُهُ: دَفعُ الضُّرِّ[8]. والنَّصرُ على العَدوِّ: إعانَةُ الخَصْمِ عليه في حَربٍ أو غيرها؛ بقوَّةِ النّاصر وغَلَبَتِه[9]، وهو المُرادُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾، و﴿ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ﴾ الواردَةُ بعدُ، معناها: طلبوا مِنكُم النُّصرَةَ.

6) ﴿أَوۡلِيَآءُ﴾ - ﴿وَلَٰيَتِهِم﴾: الواوُ واللّامُ والياءُ تدلُّ اشتقاقاتُها على مَعنَى القُربِ، ومنه: الوَليُ وهو القُربُ، تقولُ العربُ: تباعَدَ فلانٌ بعدَ وَلْيٍ؛ أي: بَعدَ قُربٍ، وجلسَ ممّا يَليني؛ أي: يُقاربُني. ومِنه المَولَى، وهوَ يُطلَقُ على معانٍ، مِنها: الحليفُ، والنَّاصرُ، والجارُ، وفي كلِّها مَعنَى القُربِ كما هو بيِّنٌ[10].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (جهد).
(2) ابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (جهد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أوى).
(4) الخليل، العين: (أوى).
(5) الحُميديّ، تفسير غريب ما في الصَّحيحين، ص: 266.
(6) الرّاغب، المفردات: (أوى).
(7) الخضيريّ، السّراج في بيان غريب القرآن، ص: 74.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصر)، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 1/79، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نصر).
(9) الفيّوميّ، المصباح المنير: (نصر)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/486.
(10) الفيّوميّ، المصباح المنير: (نصر)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/486.

ومِن أسماءِ اللهِ سُبحانَهُ: (الوَليُّ)، ومَعناهُ النَّاصِرُ، أو هو المتوَلّي لأمورِ الخلائقِ، القائمُ بها[1]. و﴿أَوْلِيَآءُ﴾ في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾؛ بمعنى: أنصارٍ، والمرادُ: أولئكَ بعضُهُم أنصارُ بَعضٍ وأعوانٌ على مَن سِواهُم مِنَ المُشرِكينَ[2]، والوَلايَةُ في الآية معناها: النُّصرَةُ.

7) ﴿مِّيثَٰقٌۗ﴾: الواو والثّاءُ والقافُ تدلُّ تصاريفُها على العَقدِ والإحكام[3]، وأصلُه: الاطمِئنانُ بالشَّيء والسُّكونُ إليهِ والاعتمادُ عليه[4]؛ إذ لا يُطمَأنُّ إلّا بالأمرِ الشَّديدِ الإحكامِ، ويُقال: أخذتُ الأَمرَ بالأَوثَقِ؛ أَي: الشَّديدِ المُحكَمِ[5].

والميثاقُ: عقدٌ مُؤكَّدٌ بيمينٍ وعهدٍ، والمرادُ بالميثاقِ في الآية: العَهدُ الّذي وَثَّق بهِ بَعضُكُم على بَعضٍ[6].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

بيّنَ اللهُ تعالى في هذه الآية أنَّ الَّذينَ صَدَّقوا اللهَ ﷻ ورسولَهُ ﷺ، وهَجَروا قَومَهُم وعَشيرَتَهُم ودُورَهُم، وبالَغوا في إتعابِ نُفوسِهم وإنصابِها في حَربِ أعداءِ اللهِ سُبحانَهُ مِنَ الكُفّارِ مِن أَجلِ إعلاءِ كلمَةِ اللهِ سُبحانَهُ، وصفَهم اللهُ تعالى بالمهاجرين، والّذينَ جَعَلوا لِرَسولِ اللهِ ﷺ والمُهاجِرينَ معه مَأوًى يأوونَ إليه، وجعلوا لهم مِن مَنازِلِهم مَساكنَ؛ إذ أَخرَجَهُم قَومُهُم مِن مَنازِلِهم، ونَصَروهُم على أعدائِهم وأعداءِ اللهِ تعالى مِنَ المُشركينَ، هُمُ الأنصارُ، - وهُمُ المهاجِرونَ والأَنصارُ - بعضُهم أنصارُ بَعضٍ، وأعوانٌ على مَن

المهاجرون والأنصار يدٌ واحدةٌ على مَن سواهم، وهم أولياء بعضهم في الإيمان والمصير

(1) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (ولي).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/78 - 79.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وثق).
(4) الرّاغب، المفردات: (وثق)، والسَّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وثق).
(5) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (وثق).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 14/82.

سِواهُم مِنَ المُشرِكينَ، وأَيديهِم واحِدَةٌ على مَن كَفَر باللّهِ تعالى، وبَعضُهُم إِخوانٌ لِبَعضٍ، دونَ أَقرِبائِهِم الكُفّار.

والّذينَ صَدَّقوا باللّهِ سُبحانَهُ ورَسولِهِ ﷺ، ولَم يُفارِقوا دارَ الكُفرِ إلى دارِ الإسلام، ليسَ لَكُم - أَيُّها المُؤمِنون المُهاجِرونَ - مِن نُصرَتِهِم وميراثِهِم، حتَّى يُفارِقوا قومَهم ودورَهم مِن دارِ الحَربِ إلى دارِ الإسلام، وإِنِ استَنصرَكُم هؤلاءِ الَّذينَ آمنوا ولَم يُهاجِروا - بأَنَّهُم مِن أَهلِ دينِكُم - على أَعدائِكُم وأعدائِهِم مِنَ المُشرِكينَ، فَيَجِبُ عليكُم - أَيُّها المؤمِنونَ مِنَ المهاجرينَ والأَنصارِ - أَن تَنصُروهُم، إِلّا أَن يَستَنصروكُم على قَومٍ بَينَكُم وبَينَهُم عَهدٌ قد وَثَّق بِهِ بَعضُكُم على بَعضٍ إِلّا يُحارِبَهُ، واللّهُ ﷻ لا يَخفَى عليه شيءٌ مِمّا تَعمَلونَهُ فيما أَمَرَكُم ونَهاكُم مِن وِلايَةِ بَعضِكُم بعضًا، وترك وِلايَةِ مَن آمَنَ ولَم يُهاجِرْ، ونُصرَتِكُم إِيّاهُم عِندَ استِنصارِكُم في الدّين، وغَيرِ ذلكَ مِن فَرائضِهِ الّتي فَرَضَها عليكم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ الفَصلِ للجملة المؤكَّدة عَمّا قبلَها:

بَـيـانُ أَحـكـامِ موالاةِ المُسلِمينَ بَعضِهِم بَعضًا

فُصِلَ قَولُ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ عَمّا قَبلَهُ؛ لوقوعِه استئنافًا ابتدائيًّا، وهو وارِدٌ للإعلامِ بأحكامِ موالاةِ المسلِمينَ لأهلِ الإسلام، مِنَ الّذين هاجَروا، والّذين لم يُهاجروا، وعدَمِ جوازِ موالاةِ الكُفّارِ[2].

نُكتَةُ تَأكيدِ الجُملَةِ الخبريّة المؤكَّدة بإنَّ:

بَـيـانُ أَهَـمّـيَّـةِ رابِـطَـةِ الأُخـوَّةِ الدّينيَّةِ والموالاةِ في اللهِ سُبحانَهُ

أُكِّدَ قولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ - وهو جملَةٌ خبريَّةٌ - بـ (إنَّ) تقويةً لنُصرَةِ المؤمنينَ بعضِهم بعضًا، تَمتينًا لرابِطَةِ الأُخوَّةِ الدّينيَّةِ، واهتمامًا بشَأنِ الموالاةِ في اللّهِ تعالى.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/77 - 82، ونخبة من العلماء، التّفسير المُيسّر، ص: 186.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/83.

نُكتَةُ تَعريفِ المُسنَدِ إلَيهِ بالموصوليَّةِ:

عُرِّفَ المسنَدُ إلَيهِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بالمَوصوليَّة في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾؛ إيماءً إلى نَوعِ الخَبَرِ المَحكومِ به على المسنَدِ إلَيهِ؛ وأنَّه مِن التَّكريمِ والرِّفعَةِ، وذلكَ أنَّ وجوبَ موالاةِ أهلِ الإيمانِ بعضِهِم بعضًا من أَعظَمِ وجوهِ التَّكريمِ بسَببِ إيمانِهِم، وفيهِ إعلامٌ بعِلَّةِ استحقاقِهِم هذهِ الرِّفعَةَ في قولِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾، وأنَّ هذه المَكرُمَةَ مُسَبَّبةٌ عَن إيمانِهِم وهِجرَتِهِم وجهادِهِم، وفي هذا تَرغيبٌ في التَّلبُّسِ بالإيمانِ، وما ذُكِرَ مَعَهُ مِنَ الأوصافِ؛ ليَندرِجَ العبدُ في سِلكِ المُكرَمينَ بولايَةِ أَهلِ الإيمانِ.

التَّرغيبُ في تَحقيقِ أوصافِ وِلايَةِ أَهلِ الإيمانِ

عِلَّةُ ذِكرِ المَوصولِ الدالِّ على الجمعِ:

إيرادُ الاسمِ الموصولِ جَمعًا في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾؛ فيه إشعارٌ بكَثرَةِ أهلِ الإيمانِ الّذينَ جمَعوا بينَ هذهِ الأعمالِ الجليلَةِ؛ مِنَ الهِجرَةِ والجهادِ في سبيلِ اللهِ سُبحانَهُ، وغيرِها مِنَ المذكوراتِ في الآيةِ الكريمَةِ.

كَثرَةُ المُؤمِنينَ المُتَّصِفينَ بالأوصافِ الحَسَنَةِ

سِرُّ مَجيءِ الصِّلَةِ فِعلًا ماضيًا:

جيءَ بصِلةِ المَوصولِ فعلًا ماضيًا ﴿ءَامَنُواْ﴾ و(هاجَروا) (وَجاهَدوا) مِن قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾؛ للدِّلالَةِ على تحقُّقِ وَصفِ الإيمانِ والهِجرَةِ والجِهادِ الحقِّ فيهِم.

وللدّلالة أيضًا على رسوخ هذه الأوصاف فيهم لدرجة أنّها تمكَّنَت في قلوبهم تمكُّنَ الصّفة في الموصوف؛ فلا تنفكُّ عنهم هذه الأوصاف، يؤكّدُ هذا أنّه بعد فتح مكّةَ انقطع وصفُ الهجرةِ بمَن آمنَ من أهلِ مكّةَ بعد ذلك، ولو ذهبَ إلى المدينة المنوّرة، وبقي وصفُ المهاجرين للطّبقة الأُولى الّتي هاجرت من مكّةَ إلى المدينة، ولو عادَت إلى مكّةَ.

تَحَقُّقُ وَصفِ الإيمانِ والهِجرَةِ والجِهادِ في سبيلِ اللهِ تعالى

نُكتَةُ حَذفِ مُتَعَلَّقِ الإيمانِ:

حَقيقَةُ الإيمانِ مُستَقِرَّةٌ في نُفوسِ المؤمِنينَ، وهُم مُقِرّونَ بجميعِ ما يَجِبُ الإيمانُ بِهِ

حُذِفَ مُتعلَّقُ الفعلِ ﴿ءَامَنُواْ﴾ من قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾، وهو المُؤمَنُ بِهِ، وفي ذلك مَسلَكانِ:

أحدُها: ظُهورُ أفرادِ المُؤمَنِ به؛ وذلك لأنَّ لِلإيمان حقيقةً شرعيَّةً معروفةً، فإذا أُطلِقَ لفظُهُ انصرَفَ الذِّهنُ إلى تلكَ الحقيقةِ، مِن غَيرِ افتِقارٍ إلى التَّنصيصِ على مُتَعَلَّقِهِ.

والآخرُ: إرادَةُ العُمومِ؛ وذلك لأنَّ حَذفَ المَعمولِ مُشعِرٌ بالعُمومِ، والمَعنَى: آمَنوا بجميعِ ما يَجِبُ الإيمانُ بِهِ شَرعًا.

بلاغَةُ عَطفِ الهجرةِ والجهادِ على الإيمان:

بَيانُ شَرَفِ الهِجرَةِ والجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تعالى

في عَطفِ الهجرَةِ والجهادِ على الإيمانِ في قَولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾ إطنابٌ بعطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ وذلك لأنَّ حقيقةَ الإيمانِ شَرعًا: قولٌ وعمَلٌ واعتقادٌ، والهِجرَةُ والجِهادُ مِن جُملَةِ الأعمالِ الصّالحَةِ المندَرِجَةِ تحتَ مُسَمَّى الإيمانِ، ومِن شَأنِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ: بيانُ الاهتمامِ بشأنِ الفردِ الخاصِّ بذِكرِهِ مرَّتين؛ أولاهُما بذِكرِه مُندرجًا تحتَ لَفظِ العامِّ، والأُخرَى: بذِكرِه على سَبيلِ الاستِقلالِ والانفرادِ.

ولمّا كان الإيمانُ هو الأصل عَطفَ عليه الهجرةَ والجهادَ؛ لأنّهما فرعان عنه، وإن كانا مشروطين في الواقع بالإيمان، فَفي الآيَةِ إيماءٌ إلى فضيلَةٍ خاصَّةٍ في الهِجرَةِ والجهادِ في سبيلِ اللهِ سُبحانَهُ.

بلاغةُ ترتيبِ الصِّفاتِ: الإيمان والهجرة والجهاد:

التَّرَقّي في تَعدادِ الأعمالِ الصّالِحاتِ، منهج في التَّزكيَة مكين

في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾، رتّبَ الذِّكرُ الحكيمُ الأوصافَ المذكورةَ في الآية مراعاةً لترتيبها حسب الوقائع والواقع؛ لأنّ الإيمانَ أوّلها، ثمّ الهجرةَ، ثمّ الجهادَ في سبيل الله، ولا سبيلَ إلى الهجرة إلّا بعد تحقُّقِ الإيمان، ولا يمكن للمسلم أن يجاهدَ في سبيلِ اللهِ إلّا بعد تحقُّقِ الهجرةِ بمعناها

العامّ من هجر الشَّهواتِ والمعاصي عمومًا، وقبل ذلك الهجرة إلى المدينة خصوصًا، وأيضًا جاء التَّرتيبُ في الآية من باب التَّرقّي في ذِكرِ بَعضِ أفرادِ الإيمانِ؛ وذلكَ لأنَّ جملةَ الصِّلَةِ قَد صُدِّرت بالإيمانِ، وهو شاملٌ لجميعِ الدِّين؛ لكونِهِ جامعًا للأقوالِ والأفعالِ والاعتقاداتِ، ثُمَّ فُرِّعَ عَنه عَمَلانِ جليلانِ يندرِجانِ تَحتَهُ، وهما: الهِجرَةُ والجهادُ، وبُدِئَ بالهِجرَةِ لِما فيها مِن مفارقَةِ الأوطانِ، وذلك ممّا يشقُّ على النَّفسِ، وثُنِّيَ بالجِهادِ لِما فيه مِن بذلِ المُهَجِ في سبيلِ اللّهِ تعالى، وذلك أشقُّ على النُّفوسِ مِن مجرَّدِ مفارقَةِ الأوطانِ، وإنْ كانَ اللّهُ ﷻ قَد قرَنَ بينَهُما في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النّساء: 66]، فإنَّ ذلك دالٌّ على شدَّةِ مفارقةِ الأوطانِ، وليسَ دليلًا على تساويهما مِن كُلِّ وَجهٍ؛ إذ الاقترانُ في النَّظمِ لا يستَلزِمُ التَّساويَ في الرُّتبَةِ مِن كُلِّ الوجوه.

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المُفاعلةِ في الهجرةِ والجهادِ:

الهجرةُ والجهادُ في القرآن الكريم يحملان طابعًا تقابُليًّا مع النَّفس في ترك رغباتها

قوله تعالى: ﴿وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾، آثرَ التَّعبيرَ بالمفاعلة لما تحملُه من معنًى زائدٍ على الفعل (هجر) و(جهد)؛ لأنَّ المهاجَرةَ تحملُ معنى التَّنازعِ النَّفسيِّ بين حبِّه لوطنه الّذي أقامَ فيه ومَسقط رأسِه، وبين حبِّه للّه ولرسوله رغبةً في الثَّواب؛ لذلك كانَت كلُّ تعبيراتِ القرآن الكريم في هذا الباب على وزن فاعَل (هاجَر).

وأيضًا للتّفريق بين (هجر) بمعنى التّرك كما في قوله تعالى: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ﴾، وقوله: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾؛ فالمعنى هنا يختلفُ عنِ المهاجَرة؛ لأنّ هجْرَ المضاجعِ وهجْرَ المنازعةِ قد يكون شرعيًّا، وقد يكون على غير ذلك، لكنّ المهاجَرةَ مصطلحٌ قرآنيٌّ شرعيٌّ تميّزَ به القرآنُ في معناه.

وأمّا عنِ المُفاعلة في باب المُجاهدة؛ فأمرُها ظاهرٌ؛ لأنّها تقعُ بين

طرفين في المعركة؛ فكلٌّ منهما يحاولُ أن يُجهِدَ الطّرفَ الآخرَ في نفسه وفي ماله؛ لذلك كانتِ المفاعلةُ ظاهرةً.

وإن حُمِلَت على مجاهدة النَّفسِ؛ فالمفاعلةُ واقعةٌ بين رغبةٍ وشهوةٍ تتملَّكُ الإنسانَ للوقوع في الخطأ وبين داعي الإيمانِ الّذي يمنعُه من ذلك، وهذه المنازعة يُطلَقُ عليها المجاهدة.

نُكتَةُ تَقديمِ المالِ على النَّفسِ:

الجهادُ بالمالِ أكثرُ وُقوعًا، وأتَمُّ دَفعًا لِلحاجَةِ

قُدِّمَ المالُ على النَّفسِ عِندَ بيانِ نَوعَيِ الجِهادِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، لنُكتَتَيْنِ:

أوَّلًا: لكونِ الجهادِ بالمالِ أكثرَ وقوعًا، وأتَمَّ دَفعًا لِلحاجَةِ، بحيث لا يُمكِنُ تصوُّرُ الجِهادِ بالنَّفسِ دونَ الجهادِ بالمالِ[1].

ثانيًا: لكونِ المالِ سببَ قيامِ النَّفسِ، وقَد كانَ المالُ أوَّلَ الأَمرِ في غايَةِ العِزَّةِ[2]؛ وذلك لأنّ المهاجرين بذلوا أموالَهم الّتي كسبوها بكَدِّهم بعدَ الهجرة، بعد أن فقدوا أموالَهم الّتي كانت مِن كسبهم قبلَ الهجرةِ؛ فالمالُ الّذي أنفقوه على تجهيز الجيوشِ في سبيلِ اللّهِ له مزيّةٌ؛ لأنّه جاء بعدَ كدٍّ وعناءٍ في تكوينه بعد أن تركوا أموالَهم في مكّةَ قهرًا من كفّار قريش.

دلالةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿بِأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾:

الجهادُ بالمال لا يقتصرُ على نوعٍ معيَّنٍ منه

عبَّرَ بالجمع مراعاةً للفظ الجمع في الآية، وأيضًا للدّلالة على أنّهم جاهدوا بكلِّ ما يمتلكون منَ المالِ سواءٌ كان عينًا أو عرضًا؛ لأنّ المالَ كلُّ ما يُتموَّلُ به، ويصدقُ ذلك على الذَّهبِ والفضَّةِ، وعلى الخيلِ والإبلِ؛ فكان التَّعبيرُ بالجمع لوصف حبِّهم للّه ولرسوله؛ فلا يبخلون بما يمتلكون.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/37.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/337.

دلالةُ (الباء) في ﴿بِأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾:

استعانوا بالمال في الجهاد، وبذلوه على حُبِّهم له

جاءَ التَّعبيرُ بالباء ليفيدَ معاني عدَّة؛ منها: الإلصاقُ والاستعانةُ، وكلُّها محتملةٌ في هذا السّياق؛ بمعنى: (وجاهَدوا مُستعينين بأموالهم)؛ لأنّها تُقوِّي ظهورَهم على القتال، أو (جاهَدوا بأموالهم المختصّة بهم)؛ وهذا دليلٌ على حبِّ الإنسانِ للمال، لكنّهم مع ذلك قدّموها في سبيل اللّه.

دلالةُ التّعبيرِ بلفظ (الأنفُس):

المجاهدون بأنفسهم في سبيل الله عددُهم قليلٌ

قوله: ﴿وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عبّرَ بالأنفس دون النّفوس؛ لأنّ الأنفسَ جمعُ قلّةٍ، بخلاف النّفوس فهي جمعُ كثرة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾، أمّا الأنفسُ - وهي جمعُ القلّةِ - فكان التّعبيرُ بها مناسبًا؛ لأنّ الّذين يجاهدون في سبيل اللّه قلّةٌ مقارنةً بكثرة المسلمين.

سِرُّ التّعبيرِ بالظّرفيّةِ:

تمكّنُ حبِّ الجهاد في سبيل الله في أنفسهم

الظّرفيّةُ في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دالٌّ على السَّبَبيَّةِ، والمَعنَى: جاهَدوا بسَبَبِه، فلم يَصُدَّهم عنه صادٌّ، وظَهَرَت لَهُم محاسِنُ الجهادِ، فسَهُلَ عليهم سُلوكُهُ.

والتَّعبيرُ بـ(في) مُشعِرٌ أيضًا بتمكُّنِهم مِنَ السَّبيلِ تمكُّنَ المظروفِ مِنَ الظَّرفِ، فيكون الدِّينُ غالبًا عليه، لا يَخرُجُ عنه بحالٍ منَ الأحوالِ[1].

سِرُّ الإضافَةِ في ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

سُلوكُ سَبيلِ اللّهِ تعالى مُوصِلٌ لِرَحمَتِهِ

إضافةُ السَّبيل إلى اسمِ الجلالةِ (اللّه) في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يُراد بها تعظيمُ السَّبيلِ، والإشعارُ بأنَّ مَن سلكَهُ وصلَ إلى رَحمَةِ اللّهِ تعالى، ومِن لازِمِ ذلك: تعظيمُ المجاهدينَ ورفعُ شأنِهم؛ حيثُ سلَكوا هذا السَّبيلَ الجليلَ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/337.

وفيه إشارةٌ إلى تيسير اللهِ لأسباب الجهاد خصوصًا، ولمنفعةِ المسلمين عمومًا؛ لأنّ السّبيلَ كلُّ ما يُتوصّلُ به إلى فعل الخير غالبًا، وممّا يُذكَرُ أيضًا في سرِّ الإضافةِ إخراجُ ما كان في سبيل الهوى والعصبيَّة.

فائِدَةُ تقييد ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

تَقييدُ المُجاهَدَةِ بكَونِها ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يُرادُ به مدحُهُم بذلك، وفيه الإشعارُ بعلَّةِ استحقاقِهم عُلوَّ المنزلةِ، مع ما فيه مِن حُسنِ مَوضِع ﴿سَبِيلِ﴾ مع ذِكرِ الجِهادِ؛ وذلكَ أنَّ السَّبيلَ من شأنِه أن يكونَ مَسلوكًا، ففيه حركَةٌ تناسبُ الحرَكَةَ المستفادَةَ مِن لَفظِ الجِهادِ.

مِن أَسبابِ الوِلايَةِ الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ تعالى

تَوجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظيِّ في هذه الآية قيد التفسير:

قالَ اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وقالَ سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [التوبة: 20]، فقُدِّمَ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على ذِكرِ الأموال والأَنفُسِ في سورةِ التَّوبة، وعُكِسَ ذلكَ في سورَةِ الأَنفالِ، ووجهُ المغايَرةِ بينَهُما: أنَّ آيةَ الأنفالِ يُرادُ بها مَعَ المَدحِ تعظيمُ ما صدَرَ منهُم مِنَ الإيمانِ والهِجرَةِ والجهادِ بالأَموالِ والأَنفُسِ، فقُدِّمَ ذِكرُ الأموالِ والأنفُسِ تنبيهًا مُعرِّفًا بمكانَةِ ذلكَ مِنَ النُّفوسِ، وأنَّهم بادَروا ببذلِها على حُبِّهم لها، وشُحِّ الطِّباعِ في الأصلِ بها، فكانَ في هذا التَّقديم تَغبيطٌ لَهُم وإعظامٌ لصنيعِهم.

دِقَّةُ النَّظمِ القُرآنيِّ في تَقديمِ الأَلفاظِ وتَأخيرِها

بخلافِ آيةِ التَّوبَةِ؛ فإنَّها مبنيَّةٌ على ذِكرِ المفاضَلَةِ بينَ سقايَةِ الحاجِّ وعمارةِ المسجِدِ الحرامِ، وبينَ مَن آمنَ وهاجرَ وجاهدَ بالمالِ والنَّفسِ، وفيها ردٌّ على مَن توَهَّمَ أنَّ السِّقايةَ وعمارةَ المسجدِ الحرامِ أفضَلُ، فنُصَّ على أنَّ الإيمانَ وما ذُكِرَ مَعَهُ أعظَمُ عِندَ اللهِ تعالى؛ فلَم يُعرِضْ هَهُنا موجبٌ لتقديمِ ما قُدِّمَ في سورةِ الأنفالِ[1].

(1) ابن الزُّبير الغَرناطيّ، مِلاك التّأويل: 1/225.

وممّا يُذكَرُ في سرِّ توجيهِ المتشابهِ أنَّ آيةَ الأنفالِ جاءَت عَقيبَ ما أنكره اللّهُ تعالى على مَن قال لهم: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾، وذلك بأخذ الفداءِ منَ الأسرى، وحذَّرَهم القرآنُ على ما أخذوا بقوله: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾، أي: منَ الفداء، وكلُّ ذلك يُدلِّلُ على سَبْق الحديث عنِ المال بأشكاله؛ فناسبَ تقديمَ المالِ في سورة الأنفال، وفي هذا مدحٌ لمَن أنفقَ أموالَه في سبيل اللّه؛ لا مَن يجاهد طلبًا للنّفع العاجل، وأمّا في سورة براءة؛ فتقدَّمَ ذِكرُ الجهاد في قوله تعالى: ﴿كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾؛ لذلك قدّمَ الجهادَ من باب التّناسب[1].

دلالةُ (الواو) في ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

الاشتراكُ في صفات الفضلِ تميُّزٌ وتكريمٌ

دلَّتِ الواو على عطف الأنصارِ على المهاجرين، ومدحَتهم بإيوائهم، ونُصرتِهم من كلِّ ما يُكدِّرُ أمنَهم واستقرارَهم، وفي هذا دلالةٌ على الجمع بينهم في صفاتِ الفضلِ.

سرُّ عدمِ ذكرِ الإيمانِ مع الإيواء والنُّصرة:

الّذين آووا الرّسولَ ﷺ قد تمكَّنَ الإيمانُ فيهم

لم يذكرِ الإيمانَ مع الأنصار في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ كما ذكرهُ مع المهاجرين في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾؛ للدّلالة على أنَّ الإيمانَ تمكَّنَ منهم تمكُّنًا ظهرَ أثرُه على أفعالِهم وأقوالِهم وحركاتِهم؛ فكلُّها تنطقُ بالإيمان؛ لذلك عبَّر بلوازم الإيمانِ منَ الإيواء والنُّصرة.

سِرُّ تَعريفِ المُسنَدِ إليه بالموصوليَّةِ:

الحثُّ على التّخلُّقِ بالأوصافِ المُقتَضيَةِ وِلايَةَ أهلِ الإيمانِ

عُرِّفَ المسنَدُ إليه ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ بالمَوصوليَّة في قولِه ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾؛ للإيماءِ إلى نَوعِ الخَبَرِ المَحكومِ بهِ على المُسنَدِ إليه؛ وأنَّه من جنسِ التَّكريمِ والرِّفعَةِ؛ وذلكَ أنَّ وجوبَ موالاةِ أهلِ الإيمانِ

(1) الشِّرْي، المُتشابه اللّفظيُّ في القرآن الكريم وأسراره البلاغيَّة، ص: 444.

بعضِهم بعضًا من أَعظَمِ وجوهِ التَّكريمِ بسَببِ إيمانِهم، وفيه إعلامٌ بعِلَّةِ استحقاقِهم هذهِ الرِّفعَةَ في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾، وأنَّ هذه المَكرُمَةَ مُسَبَّبةٌ عَن إيوائِهم أهلَ الإيمانِ ونُصرَتِهم لهم.

وفي هذا تَرغيبٌ في التَّلبُّسِ بالإيواءِ والنُّصرَةِ؛ ليَندَرِجَ العبدُ في عُمومِ المُكرَمينَ بوِلايَةِ أهلِ الإيمانِ.

عِلَّةُ إيرادِ الاسمِ المَوصولِ الدالِّ على الجمع:

كَثرَةُ المُؤمِنينَ المُتَّصِفينَ بالأَوصافِ الحَسَنَةِ، مؤشِّر إيجابيّ

إيرادُ الاسمِ الموصول جَمعًا في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾؛ فيهِ إشعارٌ بِكَثرَةِ أهلِ الإيمانِ الّذينَ جمَعوا بينَ هذهِ الأعمالِ الجليلَةِ؛ مِنَ الإيواءِ والنُّصرَةِ، وفي هذا مدحٌ وتشريفٌ للأنصار، وتوبيخٌ وتبكيتٌ للمنافقين في المدينة.

سِرُّ مَجيءِ الصِّلَةِ فِعلًا ماضيًا:

تَحَقُّقُ وَصفِ الإيواءِ والنُّصرَةِ في أَهلِ الإيمانِ الحَقِّ

جيءَ بصِلةِ المَوصولِ فعلًا ماضيًا ﴿ءَاوَواْ﴾ و﴿وَّنَصَرُوٓاْ﴾ من قولِه سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾؛ للدِّلالَةِ على تحقُّقِ وَصفِ الإيواءِ والنُّصرَةِ فيهِم، ورسوخِ هاتين الصِّفتين في قلوبهم حبًّا لله ولرسوله؛ يؤكِّدُ ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ﴾.

نُكتَةُ حَذفِ متعلِّقِ الإيواءِ والنُّصرةِ:

عَظيمُ صَنيعِ الأَنصارِ في إيوائِهم المُهاجِرينَ مِنَ المُؤمِنينَ

حُذِفَ متعلِّقُ الفعلِ ﴿ءَاوَواْ﴾ من قَولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾، وفي ذلكَ ثلاثةُ مسالِكَ:

أحدُها: ظُهورُ الأفرادِ الّذينَ وقعَ عليهِم فعلُ الإيواءِ؛ وهُمُ المؤمِنونَ الّذينَ هاجَروا مِن مكَّةَ المكرَّمَةِ إلى المدينَةِ النَّبويَّةِ.

ثانيها: إرادَةُ العُمومِ؛ وذلكَ لأنَّ حَذفَ المَعمولِ مُشعِرٌ بالعُمومِ، والمَعنَى: آوَوا جَميعَ مَنِ احتاجَ إلى الإيواءِ مِن أَهلِ الإيمانِ، وهُمُ المؤمنونَ مِن أهلِ مكَّةَ.

وفيه إشارةٌ إلى كرم الأنصارِ في عدمِ ذكرِ مَن آوَوْهُم حتّى لا يكون فيه شبهةٌ منَ المنِّ على المؤمنين المهاجرين؛ لأنّ اللّه مدحَهم بسلامة القلبِ وطيب النَّفسِ في قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

ثالثُها: أن يكونَ فِعلُ الإيواءِ قَد نُزِّلَ منزلةَ الفعلِ اللّازمِ، فلا يَفتَقِرُ إلى تَقديرِ مفعولٍ بِهِ أصلًا، ونُكتَةُ ذلكَ: الإشارةُ إلى عظيمِ صنيعِهم، حتَّى كأنَّهُ لا إيواءَ في الوجودِ إلّا ما فعَلوهُ[1].

سرُّ اختيارِ التَّعبيرِ بالإيواء:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾، وفيه آثرَ التّعبيرَ بالإيواء دون غيره؛ لأنّه يدلُّ على معنيين: الضَّمُّ، والانتهاء، وكأنّ الأنصارَ ضمّوا المهاجرين إليهم انضمامَ الجزءِ إلى الكلِّ، وانضمامَ الأخِ إلى أخيه، كما قال تعالى في حقِّ يوسفَ عليه السلام: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾، وفي هذا دلالةٌ على الرّحمةِ الموجودةِ في قلوب الأنصارِ.

ظـهـورُ معـاني الرّحمةِ والأمانِ، مـــن مـظـاهـر اللّطف والإنعام

وفيه إشارةٌ إلى أنّ المهاجرين وصلوا إلى غايتهم منَ الأمان؛ لأنَّ (آوى) بمعنى: انتهى، قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾؛ أي: انتهينا إليها.

ولأنّ الإيواءَ صفةٌ ممدوحةٌ، فقد امتنَّ اللّهُ بها على المؤمنين المهاجرين في قوله: ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾، وفي هذا مدحٌ للأنصار[2].

سرُّ تقديمِ الإيواءِ على النُّصرة:

مراعـاةُ التَّرتيب الزَّمانيّ والمكانيّ

في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ قدَّمَ الإيواءَ على النُّصرةِ بيانًا للواقع الّذي فعله الأنصارُ مع المهاجرين عندما وصلوا إلى المدينة المنوَّرةِ ؛ فآووهم إلى مساكنهم، فالإيواءُ هو المرحلةُ الأولى الّتي ذكرها القرآنُ مراعاةً للواقع المُعاش؛ ثمّ جاءتِ النّصرةُ مرحلةً

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/338.
(2) الرّاغب، المفردات: (أوى).

تاليةً عند وقوع القتالِ مع المشركين، وفيه إشارةٌ إلى تقديم العامِّ على الخاصِّ؛ لأنّ النُّصرةَ جزءٌ منَ الإيواء.

دلالَةُ الإشارَةِ بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

التَّنويهُ بِشَأنِ المُهاجِرينَ والأَنصارِ

في التَّعبيرِ باسمِ الإشارَةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ من قولِ اللهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ إظهارٌ للاهتمامِ بهم، وذلك بتَمييزِهم أكمَلَ تَمييزٍ[1].

والإشارَةُ إليهم باعتبارِ اتِّصافِهم بالصِّفاتِ الفاضِلَةِ المذكورَةِ قَبلُ، وفي ذلكَ تنويهٌ بشأنِهم، وحثٌّ لغَيرِهم على التَّخلُّقِ بهذهِ النُّعوتِ الكريمَةِ.

دلالةُ التَّعبيرِ في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

الإيماءُ إلى عُلوِّ مَكانَةِ المُهاجِرينَ والأَنصارِ

أُشيرَ إلى المذكورينَ باسمِ الإشارةِ الدَّالِّ على البُعدِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ تعظيمًا لَهُم، وإشعارًا بعُلوِّ طبقَتِهم وبُعدِ مكانَتِهم في الفضائِلِ[2].

سرُّ التّعبيرِ بالولايةِ من بَعْضِهِمْ لبَعْض:

المؤمنون ينصرون بعضهم بعضًا

آثرَ التّعبيرَ بالولايةِ دون غيرها؛ لأنّها تحملُ معاني عديدة؛ منها: المحبّةُ والنّصرةُ والمودّةُ، وقدِ اجتمعَت كلُّ هذه الصّفات في ولاية المهاجرين مع الأنصار؛ فظهر التّوادُّ والتّحابُّ والتّناصرُ بينهم، حيث جاهدوا جميعًا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وفيها دلالةٌ على أنّهم كانوا يقتسمون الغنيمةَ بينهم بالسّويّة على النّظام الّذي قرّره اللّهُ تعالى في الغنائم؛ فلا فرقَ بين الأنصار والمهاجرين.

واستدلّ البعضُ بالتّعبير بالولاية في قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ على الميراث بين المهاجرين والأنصار في أوّلِ أمرِ الهجرةِ؛ لأنّ هذا الأمرَ نُسِخَ فيما بعد بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ﴾[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/85.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/338، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/37.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3202.

دلالةُ التّعبيرِ بحرف (الواو):

الاشـــتراكُ في صفـةِ الإيـمـان أســـاسٌ في أقسام المؤمنين الأربـــعـــة في الزّمان النّبويّ

في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ﴾ آثرَ التّعبيرَ بالواو الّتي تفيدُ العطفَ؛ لأنّها عطفَت هذا القسمَ منَ المؤمنين على ما سبق ذِكْرُه منَ المهاجرين ومنَ الأنصار؛ لأنّ النّبيَّ ﷺ عندما هاجر من مكّةَ إلى المدينة صار المؤمنون على قسمين؛ منهم مَن وافقَه في تلك الهجرة، وهاجر معه، ومنهم مَن بقي في مكّةَ دون أن يهاجر؛ فهؤلاء هم الّذين قال اللّهُ فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ﴾؛ فكان العطفُ بالواو الّتي تدلُّ على الجمع؛ لإفادة اشتراكهم في صفةِ الإيمان[1].

سِرُّ تَعريفِ المُسنَدِ إِلَيهِ بِالمَوصولِيَّةِ:

تَـمـامُ الـولايَـةِ تَحصُلُ باجتِماعِ الإيمانِ والهِجرَةِ

عُرِّفَ المسنَدُ إِلَيهِ (الَّذينَ) بالمَوصوليَّة في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ﴾؛ للإيماءِ إلى نَوعِ الخَبَرِ المَحكومِ بِهِ على المسنَدِ إِلَيهِ، وبيانِ عِلَّةِ استِحقاقِهم الحُكمَ، وأنَّ الولايَةَ التّامَّةَ إنَّما تكونُ باجتِماعِ الإيمانِ والهجرَةِ معًا.

وفي هذا حثٌّ على الهِجرَةِ والتَّنفيرِ مِن تَركِها؛ لتحصيلِ الولايةِ التّامَّةِ لأَهلِ الإيمانِ.

سِرُّ مَجيءِ الصِّلَةِ فعلًا ماضيًا مع الإيمان:

الـتَّـفـريـقُ بين تحقُّقِ الإيـمـانِ ووقوعِ الهجرةِ

جيءَ بصِلةِ الموصولِ فعلًا ماضيًا ﴿ءَامَنُواْ﴾ من قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ﴾؛ للإشعارِ بتحقُّقِ وَصفِ الإيمانِ فيهم، بخلافِ فِعلِ الهِجرَةِ، فقد جيءَ بِهِ مضارِعًا منفيًّا بـ (لَم)؛ للدِّلالَةِ على أنَّ الهِجرَةَ لَم تَقَع مِنهُم قَبلُ، بقَطعِ النَّظَرِ عَن تحقُّقِها فيهم بَعدُ؛ حثًّا لهم على اكتِسابِها.

سرُّ النَّفي بـ ﴿وَلَمۡ﴾ دون (لن):

تبقى الفرصةُ قائمةً لمَن لم يهاجرْ ليلتحقَ بركْبِ المهاجرين

آثرَ القرآن النّفيَ في قوله: ﴿وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ﴾ بـ ﴿وَلَمۡ﴾ دون (لن) لوجود فرقٍ بينهما، وإن اشتركا في النّفي؛ إلّا أنّ النّفيَ بـ (لن) يحملُ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/190.

معنى التَّأبيد على رأي كثيرٍ منَ العلماء في الغالب، والقرآنُ يشيرُ إلى أنَّهم لم يهاجروا حتّى الآن، ولكن يمكنُ أن يهاجروا فيما بعد، بدليل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾.

سرُّ تكرارِ الاسم الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

تعـدُّدُ أصنـافِ المؤمنين في زمانه ﷺ

كرّرَ الاسم الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ ؛ لأنّه في كلِّ موضعٍ يشيرُ إلى طائفةٍ منَ المؤمنين في زمانه ﷺ؛ فالموضعُ الأوَّلُ يشيرُ إلى المهاجرين، والموضعُ الثّاني يشيرُ إلى الأنصار، والموضعُ الثّالث يشيرُ إلى الّذين آمنوا، ولم يهاجروا إلى المدينة، وفي هذا دليلٌ على تعدُّد أصنافِ المؤمنين واختلافِ أوصافِهم زيادةً ونقصًا.

نُكتَةُ حَذفِ متعَلَّقِ الإيمانِ مِن الآية:

حَقيقَةُ الإيمانِ مُستَقِرَّةٌ في نُفوسِ المؤمنينَ

حُذِفَ متعلَّقُ الفعلِ (آمَنوا) من قول اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ﴾ وهو المُؤمَنُ بهِ، وفي ذلك مَسلَكانِ:

أحدُهما: ظُهورُ أفرادِ المُؤمَنِ به؛ وذلك لأنَّ للإيمان حقيقةً شرعيَّةً معروفةً، فإذا أُطلِقَ لفظُهُ انصرَفَ الذِّهنُ إلى تلكَ الحقيقةِ، مِن غَيرِ افتِقارٍ إلى التَّنصيصِ على متعلَّقِه.

والآخرُ: إرادَةُ العُموم؛ وذلك لأنَّ حَذفَ المَعمولِ مُشعِرٌ بالعُموم، والمَعنَى: آمَنوا بِجَميعِ ما يَجِبُ الإيمانُ بِهِ شَرعًا، وفي هذا تعظيمٌ لشَأنِ الهِجرَةِ؛ حيثُ إنَّهم آمَنوا بجميعِ ما يجبُ الإيمانُ بِهِ شَرعًا، ومع ذلك لم يَكُن لهم كمالُ الولايَةِ بسبَبِ تَركِهِمُ الهجرَةَ.

سرُّ الإتيان بنفي الولاية:

التّفريقُ بين الّذين آمنوا ولم يهاجروا وبين مَن آمن وهاجر

جاء قولُه تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾؛ لبيان حكمِ الّذين آمنوا ولم يهاجروا، وذلك بنفي الولايةِ عنهم للتّفريق بينهم وبين السّابق عليهم.

دلالةُ نفي الولاية:

دلَّ نفيُ الولايةِ في قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾ على حكم

التَّعاملِ مع هذا الصّنفِ منَ المؤمنين؛ بأنّهم لا يتساوون مع الصّنفين السّابقين المهاجرين والأنصار في ولاية بعضهم لبعض منَ النُّصرةِ والإرثِ، والصّحيحُ قصرُ نفي الولايةِ هنا على الإرث دون النّصرة؛ لأنّ اللّه قال بعدها: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾.

شحذُ هممِهم للهجرة إلى المدينة

دلالةُ تعدُّدِ القراءات في قوله: ﴿مِّن وَلَٰيَتِهِم﴾:

في قوله تعالى: ﴿مِّن وَلَٰيَتِهِم﴾ قراءتان؛ الأولى: بكسر الواو لحمزة، والثّانية: بفتح الواو لباقي القرّاء؛ فمَن قرأ بفتح الواو جعلها بمعنى: النّصرة والتّأييد، ومَن قرأ بالكسر تكون الولايةُ بمعنى: الإمارة، وذلك للفصل بين المعنيين، وقد يجوزُ كسرُ الولاية؛ لأنّ في تولّي بعض القوم بعضًا جنسًا منَ الصّناعة كالقِصَارة والخِيَاطة فهي مكسورة[1]، وعلى هذا فالقراءتان تؤدّيان إلى نفي نُصرتِهم، وتولّي أمورِهم إلّا في حالةِ استنصارِهم للمسلمين بدليل قوله: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾.

تعدُّدُ القراءاتِ ثراءٌ للمعنى

سرُّ التّعبيرِ بالولاية المنفيّة:

قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾: آثرَ فيه التّعبيرَ بالولاية دونَ النُّصرة؛ لأنّ الولايةَ المنفيّةَ هنا هي الإرثُ دون ولايةِ النُّصرةِ؛ لأنّ اللّه قال بعد ذلك: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾؛ فالملاحظُ أنّه عطفَ هذه الآيةَ على ما سبق في قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾، والمعطوفُ مغايرٌ للمعطوف عليه؛ فوجب أن يكونَ المرادُ بالولاية المذكورة أمرًا مغايرًا لمعنى النّصرة[2].

ولايـــةُ الإرثِ مغايرةٌ لولاية النّصرِ

وذهب البعضُ إلى أنّ الولايةَ المنفيّةَ هي نعمةُ الجهادِ المشتركِ بين المهاجرين والأنصار ونعمةُ المؤاخاة، وبذلك يكون هذا الصّنفُ حُرِمَ من ولاية قسمةِ الغنيمةِ ومن ولاية المؤاخاةِ[3].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/193.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/193.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3203.

دِلالةُ (مِن) في ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾:

أَثَـرُ مَعـاني الحُروفِ في بيانِ دقـائِقِ المعـاني القُرآنيَّةِ

(مِنْ) في ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾ - مِن قَولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾ - صِلَةٌ يُرادُ بها تَوكيدُ النَّفي؛ فقَد نُفيَت عَنهُم الوِلايَةُ، ثُمَّ أُغرِقَ في هذا النَّفي، فجاء ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾ لتَعُمَّ أيَّ نوعٍ مِن أنواعِ الوِلايَةِ، سواءٌ أكانَت في التَّوارُثِ أم في غَيرِهِ[1].

دلالةُ التّعبيرِ بقوله: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾:

دعـوتـهـم إلى الانـضـمـام لـلـمـؤمـنين في المدينة

دلَّ هذا التّعبيرُ على دفع توهُّمٍ يَرِدُ في الخاطر بأنّ هذا الصِّنفَ منَ المؤمنين لمّا لم يهاجروا مع رسول الله ﷺ سقطَت ولايتُهم مُطلقًا؛ فأزالَ اللّهُ تعالى هذا الوهمَ بقوله: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾؛ يعني: أنّهم لو هاجروا لعادَت تلك الولاية وحصلَت، ودلَّ أيضًا على دعوتهم إلى الهجرة إلى المدينة وترغيبهم فيها؛ لأنّ المسلمَ متى سمع أنّ اللّه منعَهم منَ الولاية حتّى يهاجروا، لا شكّ أنّه سيسرعُ الخُطا إلى الهجرة رغبةً لمَا فيها منَ النَّفعِ الدّنيويّ والفوزِ الأخرويّ.

نُكتَةُ تَقديمِ المُهاجِرينَ على الأَنصارِ:

تَـفـاضُـلُ أَهـلِ الإيـمـانِ في تَحصيلِ أَفـرادِ العَمَلِ الصَّالِحِ

بُدِئَ بالمهاجرينَ قَبلَ الأنصارِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾؛ لكونِ المهاجرينَ أصلَ الإسلامِ، وأوَّلَ مَنِ استجابَ للّه تعالى، فتركوا أوطانَهُم صيانَةً لدينِهِم، وكانوا قُدوةً لغيرِهِم في الإيمانِ، وسببًا في تقويَةِ الدّين وثباتِه؛ فبحصولهم على هذه الصّفات كانوا قدوةً لمَن بعدهم، وأصبحوا سادةً للمسلمين إلى يوم القيامة، وثُنّيَ بالأنصارِ؛ لأنّهم آووا المُهاجرين، وبذلوا النّفسَ والمالَ في خدمةِ رسولِ اللّه ﷺ وإصلاحِ مهمّاتِ أصحابِه، ومع ذلك فحالُ المهاجرين أعلى من حال الأنصار؛ لأنّهم السّابقون بالإيمان، ولأنّهم تحمّلوا العناءَ من قريشٍ زمنًا مديدًا، وتحمّلوا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/342.

مفارقةَ الأوطانِ والأهلِ والجيرانِ، وكلُّ ذلك لم يحصُلْ للأنصار؛ لذلك قدّمَ القرآنُ ذِكْرَ المهاجرين على الأنصار.

دلالَةُ الخَبَرِ في الآية الكريمة:

التَّرغيبُ في الهِجرَةِ والتَّنفيرُ مِن تَركِها

قَولُ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ، جاريَةٌ على أصلِها في إعلامِ أهلِ الإيمانِ بحكمٍ شرعيٍّ جديدٍ، ويدلُّ الخَبَرُ أيضًا على التَّرغيبِ في الهِجرَةِ[1] والتَّنفيرِ مِن تَركِها؛ لئلّا تَفوتَهُم بِتَركِها ولايَةُ أهلِ الإيمانِ، فهي بهذا الاعتبار مجازٌ مُرسَلٌ مُركَّبٌ.

دلالةُ الواو في جملة الاستنصار في الدّين:

عطفُ الجُمَلِ لاشتراكٍ في الحُكْمِ الواحد

دلَّتِ الواو في قوله: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ على عطف هذه الجملة على ما قبلها في قوله: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ﴾، وذلك من باب عطفِ حُكمٍ على حُكمٍ؛ حيث ذُكِرَ في الجملة السَّابقةِ نفيُ الولايةِ لهم حتّى يهاجروا، وهنا ذكرَتِ الحكمَ الثّاني، وهو: إن استنصروكم فانصروهم، ولا تخذلوهم، فجامعُ العطفِ بينهما هو الاشتراكُ في الحكم.

سرُّ التّعبيرِ بـ ﴿وَإِنِ﴾:

طلبُ النُّصرةِ يجوزُ وقوعُه منَ المؤمنين بأحوالٍ خاصَّةٍ

قوله: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾، آثرَ التّعبيرَ فيه بـ ﴿وَإِنِ﴾ الّتي تفيدُ الشَّكَّ في الوقوع أو ندرة الوقوع؛ لأنّ طلبَ النُّصرةِ من هذا الصّنف منَ المؤمنين أمرٌ محتَملٌ نظرًا لبقائهم في موطن الأمانِ بين أقوامِهم وعدم تعرُّضِهم لمواقفَ تستدعي طلبَ النُّصرة.

وفيه إشارةٌ إلى أنّ الإسلامَ يحترمُ المؤمنين مع اختلاف أحوالهم، وأنّ القليلَ منه يأخذُ حكمَ الكثير في النّصرة.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/342.

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿ٱسْتَنصَرُوكُمْ﴾:

الاستنصارُ شاملٌ لكلِّ أنواعِ العَوْنِ

قَولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ﴾: آثرَ التّعبيرَ بالنَّصر؛ لأنّ معناه العونُ بكلّ أشكالِه سواءٌ كان العونُ ماديًّا أم معنويًّا، وفي هذا دليلٌ على أنّ هؤلاء المؤمنين في موطن الضَّعفِ من غيرهم، والإسلامُ يحرصُ على العزّةِ للمؤمنين في كلِّ مكانٍ، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

دلالَةُ الحرف (في) ﴿فِي ٱلدِّينِ﴾:

مَناطُ النُّصرَةِ الشَّرعيَّةِ الأُمورُ الدِّينيَّةُ

آثرَ التَّعبيرَ بـ﴿فِي﴾ الّتي تدلُّ على الظَّرفيَّة، والمعنى: أنَّهم مُتمكِّنونَ مِنَ الدّين تمكُّنَ المَظروفِ مِن ظرفِه، وهي ظرفيَّةٌ مجازيَّةٌ، تؤولُ إلى معنى التَّعليلِ[1]، ويجوزُ أن تكونَ ﴿فِي﴾ بمعنى السّببيّةِ، ويكون المرادُ إن طلبوا نُصرَتَكُم بسَبَبِ أمرٍ مِن أُمورِ الدّين فانصروهم، إلّا على قومٍ بينكم وبينهم ميثاق.

سرُّ تقييدِ النَّصرِ بكونه في ﴿ٱلدِّينِ﴾:

لا نصرةَ في قَبليَّةٍ أو عَصَبيَّةٍ أو عَرَضٍ دُنيويٍّ زائلٍ

قيّدَ طلبَ النُّصرةِ بكونه في الدّين لإخراج النُّصرةِ من أجل العصبيَّةِ والقبليَّةِ ؛ فذلك أمرٌ مذمومٌ، وأيضًا لأنّ لفظَ الدّين لفظٌ عامٌّ، فتندرجُ تحتَه معانٍ كثيرةٌ ينبغي الحفاظُ عليها؛ فإذا تعرّضَ أمرٌ من أمور الدّين أو شعيرةٌ من شعائره للاستهزاء وللسّخرية ونحو ذلك، وجب على المسلمين نصرةُ هؤلاء المؤمنين الّذين لم يُهاجروا حتّى لا يكون للكافرين على المؤمنين سبيلٌ.

دلالَةُ (عَلَى) وأثرها في السّياق:

وُجوبُ نُصرَةِ أَهلِ الإيمانِ بَعضِهِم بَعضًا

آثرَ التّعبيرَ بـ(عَلَى) في قَولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾؛ لأنّها للاستعلاءِ، والمُرادُ ههنا الدِّلالَةُ على الوجوبِ والإلزامِ؛ لأنَّ مَعنَى الاستِعلاءِ مُتضَمَّنٌ فيه؛ أي: واجبٌ علَيكُم نَصرُهُم.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/343، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/86.

نُكتَةُ تَقديمِ الخَبَرِ ﴿فَعَلَيۡكُمُ﴾:

تـقـديـمُ الـخـبرِ للاهتمام به

قوله تعالى: ﴿فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾، قُدِّمَ الخبرُ ﴿فَعَلَيۡكُمُ﴾ لإرادَةِ الاهتِمامِ[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنّ المؤمنَ يحتمي بولاية المؤمنين مهما تباعدتِ الدِّيارُ، وتناءتِ الأقطارُ؛ فالمؤمنُ إذا استنصرَ بجماعة الإيمانِ وجبَت نُصرتُه.

دلالَةُ (أل) في ﴿ٱلنَّصۡرُ﴾:

أَثَـــرُ مَـعـانـي الحُروفِ في فَهمِ المعاني القُرآنيَّةِ

اللّامُ في لفظ ﴿ٱلنَّصۡرُ﴾ من قَولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾ للعَهدِ الذِّكريِّ، والنَّصرُ مذكورٌ في قولِهِ قبلُ: ﴿ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ﴾؛ فإنَّهُ دالٌّ على طلَبِ نصرٍ، فلمّا ذُكِرَ النَّصرُ بَعدُ في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾ كان راجِعًا إلى النَّصرِ الّذي طلبوهُ، والمَعنى: فعلَيكُم نَصرُهُم[2].

سرُّ التّعبيرِ بـ ﴿فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾:

الـنَّـصـرُ من أجـل الـدّيـنِ، وليس من أجل العصبيَّةِ

عبّرَ بالنَّصر مُعرَّفًا بـ(أل) دون إضافته إلى الضّمير (نصرهم)؛ للدّلالة على أنّ نصرَهم يكون من أجل الدّين، وليس من أجل الأشخاص؛ لأنّ البعضَ قد يُنصَرُ من أجل قرابةٍ أو منفعةٍ، لكنّ القرآنَ يريدُ أن يكونَ النَّصرُ من أجل الدّين؛ لذلك جاءَ التّعبيرُ مُعرَّفًا بـ(أل) دون التّعريف بالضّمير.

سِرُّ تقديمِ ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾ على ﴿وَبَيۡنَهُم﴾:

احـتـرامُ الإسلامِ لـلـمـواثـيـق والعهود

في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ﴾ قدّمَ القرآنُ الكريمُ لفظَ ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾ للدّلالة على أنّ المسلمين في موضعِ القوَّة، حيث قدّمَهم في الذّكرِ ووجّهَ الخطابَ إليهم، وأمّا الفريقُ الآخرُ؛ فأخّرَهم في الذّكر، وعبّرَ عنهم بضمير الغيبة، وفي هذا دليلٌ على ضعفِهم وعدمِ ظهورِ قوتِهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/86.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/86.

نُكتَةُ تَنكيرِ ﴿مِّيثَٰقٌ﴾:

نُكِّر لَفظُ ﴿مِّيثَٰقٌ﴾ من قَولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ لإرادَةِ تعظيمِ هذا الميثاقِ وتَغليظِه.

تَعظيمُ الميثاقِ وَتَغليظُهُ، من أصول المعاملة في الإسلام

دلالَةُ تَعريفِ المُسنَدِ إلَيهِ (الله) بالعلميَّةِ:

عُرِّفَ المُسنَدُ إليه (اللهَ) بالعَلَميَّةِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾؛ لإظهارِ المَهابَةِ بالتَّصريحِ بالاسمِ الأَحسَنِ الجامعِ لِصفاتِ الجَلالِ والجَمالِ والكَمالِ، وفيه أيضًا تَرهيبُ المخاطَبينَ من مخالفَةِ أوامرِ اللهِ تعالى بالتَّركِ أو نَواهيه بالارتكاب.

تَرهيبُ المُخاطَبينَ مِن مُخالَفَةِ أوامِرِ اللهِ تعالى بالتَّركِ، أو نَواهيهِ بالارتكابِ

نُكتَةُ تَقديمِ الجارِّ والمَجرورِ:

قُدِّمَ الجارُّ والمَجرورُ في قَولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ تأكيدًا لِعلمِ اللهِ سُبحانَهُ بالخفايا؛ وذلك أنَّ السّياقَ لمّا كانَ في بيانِ المصالحِ الَّتي تُنَظِّمُ الدِّينَ، وكانَ للنُّفوسِ أحوالٌ متباينَةٌ؛ اقتضَى ذلكَ تأكيدَ عِلمِ اللهِ[1] ﷻ.

إحاطَةُ عِلمِ اللهِ تعالى بجميعِ أَحوالِ الخَلقِ

وفي تقديمِ الجارِّ والمجرورِ اهتمامٌ بالمقدَّم، وذلكَ أنَّ اللهَ سُبحانَهُ عالمٌ بما يَعمَلُ المخاطبونَ وعالمٌ بجميعِ أحوالِ الخلقِ، فكانَ التَّقديمُ مُفيدًا الاهتمامَ بالمقدَّمِ لكونِ السّياقِ في أعمالِهم، لا دالًّا على الحَصرِ.

بلاغَةُ التَّذييلِ في آخرِ الآيةِ الكريمة:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ وجُملَةُ التَّذييلِ واردَةٌ على جِهَةِ التَّحذيرِ للمسلمينَ؛ لئلّا يحملَهُم العَطفُ على إخوانِهم المسلمينَ على أن يُقاتِلوا قومًا عقدوا معَهُم ميثاقًا، ولازِمُ هذا التَّحذيرِ التَّنويهُ بشأنِ الوفاءِ بالعَهد[2].

التَّنويهُ بِشَأنِ الوَفاءِ بالعَهدِ، وأهميتِه في الإسلام

وفي جملةِ التَّذييلِ أيضًا تَرغيبٌ وتَرهيبٌ: ترغيبٌ في العَمَلِ بما جاءَ الحثُّ عليه مِنَ الإيمانِ والهِجرَةِ وتوابعِهما، وترهيبٌ مِنَ العمَلِ بضدِّ ذلكَ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/344.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/87.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/345.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿بَصِيرٌ﴾:

الأحـــــداثُ المُشاهدَةُ قُوبِلَت بالصّفةِ الدّالَّةِ عليها

آثرَ التّعبيرَ بلفظ ﴿بَصِيرٌ﴾ دون (عليم) في قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ لأنّ السِّياقَ هنا يتعلَّقُ بأحداثٍ مُشاهدَةٍ، ناسَبَها التّعبيرُ بالبصير؛ فأمرُ الإيواءِ والنُّصرةِ والهجرةِ والجهادِ كلُّها أمورٌ مُشاهدَةٌ تقعُ تحتَ بصرِ اللهِ ﷻ، وفي ذلك تقويةٌ لمضمون الكلام عند المؤمنين وتقريرُه في نفوسهم، أمّا العلمُ فيتعلَّقُ بأمر النّيّات والخفايا، وما ذُكِرَ هنا ليس من هذا الباب.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الميثاقُ والعهدُ:

المـيـثـاقُ عـهـدٌ مؤكَّدٌ بيَمِينٍ

آثرَ التّعبيرَ بالميثاق دون العهد؛ لأنّه أبلغُ، فالميثاقُ عهدٌ مؤكَّدٌ بيمينٍ، ولذلك يستخدمُه القرآنُ الكريمُ في الأمور المغلظة، مثل: ﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ١٥٤﴾ [النساء: 154]، ومثل الحديث على ميثاق النّبيّين، وفي الحديث عن المعاهدات الّتي تُعقَدُ بين المسلمين وغير المسلمين، سمّاها القرآنُ ميثاقًا كما في هذه الآية.

وأيضًا لأنّ الميثاقَ أخصُّ منَ العهد؛ فكلُّ ميثاقٍ عهدٌ، وليس كلُّ عهدٍ ميثاقًا، ويدُلُّ الاشتقاقُ اللُّغويُّ على هذا الفارقِ؛ فإنَّ الميثاقَ من قولِهم: أوثقتُ الشَّيءَ؛ أي: أحكمتُهُ[1].

وذكرَ الشَّوكانيُّ فرقًا آخرَ بينَهما[2] لا يَرجِعُ إلى أَصلِ اللُّغةِ: وهو أنَّ العهدَ جميعُ ما عَهِدَ اللهُ تعالى على العبادِ مِنَ الأوامرِ والنَّواهي، والميثاقَ ما أخذَه اللهُ سُبحانَهُ على عبادِه حين أخرجَهُم مِن صُلبِ آدمَ في عالم الذَّرِّ؛ وهو الواردُ في قول الله ﷻ: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الأعراف: 172].

(1) ابن القطّاع، كتاب الأفعال: 3/304.
(2) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/94.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»